

## حديث التقرير - الأدب القرآني في خطب السيدة زينب(ع)



الحديث التقرير

الأدب القرآني في خطب السيدة زينب(ع)

بعد أن استعرضنا في حديث التقرير السابق دور زينب في مسيرة الحضارة الإسلامية نقف عند الأدب القرآني لهذه السيدة لنبين أن ما نهضت به من دور إنما كان نتيجة لتفاعلها مع المدرسة القرآنية.

نقصد بالأدب القرآني هنا تأثير القرآن لفظاً ومعنى في الخطاب الزينبي، وأكتفي هنا بذكر نماذج من هذا الأدب في خطبة عقبة بنى هاشم لأبيه<sup>ن</sup> - كما ذكرت - حقيقة تفاعل هذا البيت الكريم بالقرآن وتربيتهم القرآنية وتوهّج الروح القرآنية في نفوسهم، وانطلاقهم في دعوتهم على أساس كتاب الله العزيز.

نقف أولاً عند بعض مقاطع خطبتها في الكوفة، تقول:

«يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر أتبكون فلا رقان الدمعة، ولا قطعت الرزقة، إنما مثلكم كمثل

التي زَقَّتْتَ غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيما نكم دخلاً بينكم».

مثّلت السيدة قتلة الحسين وخاذليه بما مثّل به القرآن تلك الجماعة المهزومة المتردّدة التي تردّدت في عهودها وأيمانها فقال لهم الله تعالى: ) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ إِلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي زَقَّتْتَ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَنْدَحِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَ ذَكْرِهِمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّهَا يَأْتِيُوكُمْ إِلَيْهِ وَلَيَأْتِيَنَّكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كَذَّبْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ( (النحل: 91-92).

عجب تشابه المترددين والمخاذلين.. هذه الجماعة التي يخاطبها القرآن تنقض العهد والأيمان لأنها ترى أمة كفار قريش أربى من أمة المسلمين.

وهؤلاء القوم الذين تخاطبهم زينب يرون يزيد بهيله وهيلمانه وعظمته وسلطاته أربى من الحسين وأهل بيته، فابتلاهم الله بين المصلحة الآنية الضيقة وبين المصلحة الحقيقة التي توفر لهم عز الدنيا والآخرة، فاختاروا عرض هذا الأدنى وضررت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

وتقول في مقطع آخر من تلك الخطبة: «أتبكون وتنتحبون؟! أي والله فابكونوا كثيراً واضحكوا قليلاً». وفي هذا العبارة إشارة رائعة إلى قوله تعالى: (فَرَحِيَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَاتُلوَا لَا تَنْدِفِرُوا فِي الْحَمَرِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرَّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ، فَلَيَأْمُحَكُوا قَلْبِيَّاً وَلَيَأْكُلُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (التوبه: 81-82).

وفي هذه الآية أيضًا إشارة إلى المخاذلين المتقاعسين عن التحرك نحو الله، والمنشدّين بالمال والمتاع، والمتردّعين بأتفه الأمور تبريرًا لوضعهم المتخلف. وهؤلاء سوف لا تدوم فرحتهم، بل ستعود وبالاً عليهم، وما أشبه المخاطبين في هذه الآية بمن تخاطبهم زينب. وما أروع إشارة زينب في تضمينها القرآني الذي يحمل كل هذه المعاني الكبرى!!

وفي مقطع آخر من نفس الخطبة تقول:

«لقد ذهبتم بعاراتها وشنارها ولن ترْجِعُوها بغسل بعدها أبداً، وأزّي ترجمون قتل سليل خاتم

النبوة ومعدن الرسالة وسيد شاب أهل الجنة وملاذ حيرتكم، ومفزع نازلتكم ومنار حُجّتكم، ومَدْرَه ألسنتكم، ألا ساء ما تزرون، وبعدًا لكم وسحةً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفة، وبُؤتم بغضب من الله، وضُربت عليكم الذلة والمسكنة».

وفي المقطع إشارة إلى أحاديث رسول الله في الحسين وأهل البيت عليهم السلام لا نقف عندها، بل نكتفي بالإشارات القرآنية.

عباراتها: ألا ساء ما تزرون، مستلهمة من قوله سبحانه: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقَاءِ اللَّهِمَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَاتَلُوا يَمَّا حَسِرَ تَنَاهَى مَا فَرَّ طَنَّا فِيهَا وَهُمْ بَحْمَلُونَ أَوْ زَارَهُمْ عَلَىٰ طُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَنْزَرُونَ) (الأنعام: 31).

ومستلهمة من مقطع قرآنی عظيم في دلالته على الموقف يقول سبحانه: (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُّهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ، لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ يُسْرِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذِنَ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، لَيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُهْلِكُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَنْزَرُونَ، فَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَ رَبُّ اللَّهِ بُنْدِيَّاتَهُمْ مَنْ الْقَوْاعِدُ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) (النحل: 22 - 26).

لاحظ المشتركات بين المقطعين المذكورين: التكذيب بقاء الله، المصير الخائب لهؤلاء المكذبين، الأوزار التي تنقل ظهور هؤلاء المكذبين.

عقيلة بنى هاشم كانت تخاطب جماعة مسلمة تبكي على مقتل الحسين، ولكنها كانت ترى أن هذا الإسلام لم يبلغ في نفسها درجة الإيمان، ولو كان قد بلغ درجة الإيمان لتحول إلى طاقة روحية تأبى الضيم وتدافع عن الحق وتنصر الحسين وتقارع دولة الطالمين. ولكن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، فكانوا للطالمين عونًا، لم يشاركونا مسيرة الحسين إلا بدموعهم، ولا قيمة للدموع التي لم تصحبها حركة إيمانية نحو تحقيق أهداف الحسين.

هؤلاء است كانوا للدنيا وانشدوا بالمال والمتاع طالبين أنهم سياً منون وسيرغدون، دون شعور منهم بأن كل شيء بيد الله لا بتدبيرهم وتقديرهم.

ثم قولها: «بُعْدًا» و«سحة» من أدب القرآن في مقارعة المنحرفين عن طريق رسالة الأنبياء:

(بُعْدًا لـ قَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود: 44) (بُعْدًا لـ عَادٍ قَوْمٌ هُودٌ) (هود: 60) (أَلَا  
بُعْدًا لـ ثَمُودَ) (هود: 68) (أَلَا بُعْدًا لـ مَدْيَانَ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ) (هود:  
68). (فَبَعْدًا لـ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: 44) (فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعْيِ)  
(الملك: 11).

وقولها (ع): «فلقد خاب السعي».

تعبير يتكرر نظيره في القرآن الكريم عن خيبة كل الجبارين المفترين والطالمين والفاجرين:  
(وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَذِيدٍ) (ابراهيم: 15). (وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) (طه: 61).  
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ طُلُومًا) (طه: 111). (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس: 10).

وقولها: «وتبت الأيدي».

إشارة إلى ما نزل في ذم أبي لهب: (تَبَّتْ يَدَا أَبْرَي لَهَبَيْ وَتَبَّ) (المسد: 1). وهو ذم  
للمكذبين الذين يقفون في صف أعداء الله.

وقولها: «وخسرت الصفة».

تعبير قرآني يتكرر لدى الحديث عن خسران الذين يركّزون على ذاتهم، ويتعاملون مع كل شيء، من خلال تحقيق مصالحهم الذاتية: مصالحهم ومصالح ذويهم وأهليهم، يقول القرآن عنهم بأنهم لم يحققوا حتى لأنفسهم وأهليهم ربحًا، بل إن كل تعاملهم الذاتي خاسر: (وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةً فَإِنَّهُ لَابَ عَلَيْهِ خَسِيرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبْرِئُينُ ) (الحج: 11).  
(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَزْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ  
خَالِدُونَ) (المؤمنون: 103)  
(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَزْفُسَهُمْ وَأَهْلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ )  
(الزمر: 15).

ومفهوم الربح والخسارة له أهميته الكبرى في التصور القرآني. ومن هذا المفهوم تناطح السيدة زينب  
أهل الكوفة بأنهم تعاملوا مع الحسين ومع يزيد بما تملّيه عليهم مصالحهم الذاتية الآنية الضيقة وهي

وقولها عليها السلام: «وبؤتم بغضب من الله وضُربت عليكم الذلة والمسكنة».

مستلهم من آية تتحدث عن بنى إسرائيل الذين أبوا إلا أن يهبطوا إلى أدنى مستوى من الطموح، وأحطّ درجة من الأمانى والأمال، فكانت طموحهم وأمانىّهم لا تتعدى شهوات البطن ومتطلبات إفراز المعدة، فذلّوا وحاق بهم عذاب رب العالمين بعد أن أبعدتهم هذه الطموحات الهاشمة عن السير نحو الأهداف السخية التي وضعتها أما مهام الرسالة الإلهية:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ أَلْأَرْضُ مِنْ بَقْلَاهَا وَقِثَّاهَا وَفُومَهَا وَعَدَسَهَا  
وَبَصَلَاهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ إِلَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالْأَذْيَهُونَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا  
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَصُرِبْتُ عَلَيْهِمُ الْذِلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ  
وَبَاءَهُوا بِغَهَبَتِهِ مِنْ أَذْلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ  
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ  
(البقرة: 61).

وننتقل إلى مقاطع من خطبة الشام، وأبدأها بما بدأ الخطبة به حيث قال:

«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآلته أجمعين صدق الله كذلك حيث يقول: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ إِلَّاذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَ أَنَّ كَذَّبُوا بآياتِ الله وَكَانُوا بِهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ) (الروم: 10).»

هذه الخطبة تتجه فيها العقبة إلى يزيد وتبدأها بهذه الآية التي جاءت في سياق الحديث القرآني عن المتجبرين الذين يتمادون في غيهم دون الاتعاظ بمن سبقهم من الطالمين. يقول سبحانه:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ إِلَّاذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ فُوْءَةٌ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا، أَكْثَرَهُمْ  
عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مُّنْذَاتٌ فَمَا كَانَ أَهُمْ لَيَظْلِمُهُمْ وَلَكُنْ  
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثم كان عاقبة...) (الروم: 9 - 10).

وفي الآية الكريمة التي تلتها السيدة زينب عليها السلام سنة إلهية تنطبق على كل المتمادين في غيهم والغارقين في طغيانهم، هؤلاء يعمدون إلى تكذيب الرسالات الإلهية كي يتخلصوا من عذاب الضمير ووخر

الوجودان، وهي سنة تنطبق على كل الغارقين في أحوال الرذيلة. والاتجاه المادي في النظرة إلى الكون والحياة كان غالباً ينطلق من رفض نفسي لمدرسة الأنبياء قبل أن يكون رفضاً عقلياً وفكرياً. ينطلق من رغبة في إزالة الموانع التي تقف بوجه جموح الشهوات واستفحال الغرائز.

وما أكثر انطباقه على يزيد في سلوكه وفي عدائيه للرسالة الإلهية. وتحاطبه في مقطع آخر بقولها:

«فوا ما فريت إلا جلدك ولا حزرت إلا لحمك ولتردن على رسول الله (ص) بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من رحمه في عترته لحمته، حيث يجمع [ ] شملهم، ويعلم شعthem، ويأخذ لهم بحقهم: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمُذْدَرِينَ قُتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران: 169).»

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق حديث القرآن عن موقف المناقين بعد معركة أحد، هؤلاء الذين يتظاهرون بالارتفاع إلى مستوى الرسالة ومستوى التضحية بأسنتهم، ولكنهم في واقعهم حریصون على الحياة الدنيا مهما كلف الثمن. الآية والآيات السابقة تتحدث عنهم كيف كانوا يخاطبون المؤمنين وكيف كانوا يخاطبون أصحابهم من المناقين، ثم تبيّن لهم معنى الموت في سبيل [ ]، والسعادة التي ينالها الشهداء:

(وَلَمْ يَعُلَمْ الْمُذْدَرِينَ زَافَقُوا وَقَبِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ [ ] أَوْ ادْفَعُوا قَاتِلُوا لَوْ زَعْلَمْ قَتَالَا لَزَبَعْنَادَكُمْ هُمْ لَتْكُفِرْ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَمَّا لَيَسِّرْ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الْمُذْدَرِينَ قَاتِلُوا لِذُو اَنْهِمْ وَقَاعِدُوا لَوْ أَطَاعُونَ مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمُمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمُذْدَرِينَ قُتِلُوا قُلْ فَاتَاهُمْ [ ] مِنْ فَضْلِهِ وَيَسِّرْ بِشَرْونَ بِالْمُذْدَرِينَ لَمْ يَلْحَقُوا فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ [ ] أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَزَنُونَ) (آل عمران: 167-170).

وما أجمل هذا الدرس القرآني الذي تقدمه زينب ليزيد كما قدّمه جدّها من قبل لمنافق زمانه. وفي جزء آخر من هذه الخطبة تقول ليزيد: « وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للطالمين بدلاً وأيكم شرّ مكاناً وأضعف جندًا».

وفي العبارة تضمين مقطع قرآنی يتحدث عن اعتراض المنحرفين عن طريق اهـ بظواهر الحياة الدنيا وزينتها وبهرجتها، معتبرين هذه المظاهر الدنيوية معياراً للتفاصيل. وهؤلاء الذين مكّنوا ليزيد من رقاب المسلمين ما أرادوا إلا هذا المتع الرخيص، وإلاً هذه المغانم الزائلة وهذا العَرَم التافه.

يقول سبحانه وتعالى عن منطق التفاضل عند هؤلاء المنحرفين ويرد عليه بأنه منطق تافه سرعان ما يستتبّ له تفاهته إما في الدنيا وإما في الآخرة، وسرعان ما سيعلمون أن معيار تفاصيلهم كان يقوم على أوهام: (وَإِذَا رُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِتَّدْرِيْنَ أَمَدُوا أَيْهُمْ أَكْثَرُ يَقِيْنَ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ زَادِيْنَ وَكَمْ أَهْلَكَنَ قَبْلَهُمْ مَّنْ فَرَنْ هُمْ أَحْسَنُ أَثْرَاثًا وَرَزْيَنَا، فُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّالَةِ فَلِيَمْدُدْدُ لَهُ الرَّحْمَمَنْ مَدَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابُ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَبِيْعَلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَارًا وَأَصْعَفُ جُنْدًا) (مريم: 73-75).

وتقول عليها السلام في مقطع آخر من خطبة الشام: «ولئن اتّخذتنا مفنّنا لتجدرّنا وشيكًا مغرّمًا حيث لا تجد إلا ما قدّمت يداك وما ربيك بطلّم للعبيد».

وهذا مستلهم من سياق قرآنی يركز على النفر الذي يركب الغرور فلا يهتدى بعلم ولا يستنير بكتاب، بل يدفعه استكباره إلى إضلal الآخرين فيقول عنه القرآن الكريم:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّذَبِّرٍ، ثَانِي عِطْفَهِ لَيْلُضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّرُزِيَّا خَرْزِيُّ وَزُدِّيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرَيقِ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لَّمْعَبِيد) (حج: 8-10).

وكم هي قريبة مناسبة الخطاب القرآني ومناسبة الخطاب الزينبي!! وما أجمل التضمين والسياق!! وتقول في نهايات الخطبة: «وهل رأيك إلا فَنَدَ وَأَيَّاكَ إِلا عَدَ وَجَمَعَكَ إِلا بَدَدَ يوم بنادي المنادي لا لعنة اهـ على الطالمين».

تضمين قرآنی مستلهم من سياق قرآنی يتحدث أيضًا عن المكذبين والمفترين على اهـ. يقول سبحانه وتعالى: (وَمَنْ أَطْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اهـ كَذَبًا أُولَئِكَ يُعْزِّزُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اهـ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود: 18).

بعد ذلك نذكر حقيقة نحسبها هامة في واقعنا الراهن، وهي ضرورة حضور القرآن في قلوبنا ونفوسنا وسلوكنا ونهج حياتنا، وهذا لا يتحقق إلا إذا تفاعلنا مع الأدب القرآني وعشنا جمال ألفاظه وعباراته وتمتعنا بموسيقاه وأساليبه، كما أنه لا يتحقق إلا إذا شعرنا بكل وجودنا بأننا نحن المخاطبين بآيات الكتاب العزيز. وأذكر هنا عبارة لإقبال اللاهوري يقول فيها: أكثر ما أثر في حياتي كلمة سمعتها من أبي يقول: يابني أقرأ القرآن كأنه أنزل عليك.

إذا تلقينا القرآن بهذا الشكل فسيعيد كلام الله دوره في بناء الفرد الصالح والمجتمع الصالح، وسيتحول في نفوسنا إلى طاقة هائلة تدفع بنا لإعادة وجودنا الحضاري وإلى استعادة عزتنا وكرامتنا وإلى وحدتنا في المشاعر والقلوب والأفكار والله ولي التوفيق

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية  
الشؤون الدولية